مجلة المعالم

العدد :٢٠٣ الموافق في جمادى الأخرة ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/١٠ ميلادي

عنوان المقال : الهوية الإسلامية في الغرب/المشكلة والحل – ٢ –	بقلم : متولي موسى

رابعاً : فكرة العالمية والعلاقات المتعددة الأطراف

تعتبر فكرة العالمية والتعددية والقومية من أهم عوامل التأثير في الصراع أو الحوار بين الهويات المختلفة في العالم المتغير الذي نعيش فيه ولا شك أن وجود وعي ثقافي كوني ومحلي لدى الإنسان ، هو الذي يجعل أصحاب هوية معينة يتمسكون بهويتهم سواء كانوا أكثرية في بلد معين أو أقلية في مكان ما - وذلك يتطلب منا إلقاء الضوء على كل فكرة على حدة على النحو التالي :

١- فكرة العالمية

هذه الفكرة قديمة فكما يقول " هامرتون وآخرون " : " فالعالمية إذن أساسها وحدة العالم الجغرافية وما طرأ عليها من تغييرات وهي ما تعرف بالتطور الجغرافي "[١] .

ويقول د. محمد حسن الأبياري : « وأصبحت الحقيقة التي لا خلاف عليها ، هي أن التقسيم السياسي للعالم في مراحل التطور المختلفة ، هو تقسيم اصطناعي فرضه ضعف الإنسان في مواجهة " الطبيعة " من ناحية - وهذا ما تغلب عليه الإنسان - كما فرضته من ناحية أخرى " أنانية الجماعات الإنسانية " فابتدعت ما يعرف بالجنس والعنصر والقومية وسيادة الدولة رغم وحدة الأصل . وخطورة هذا التقسيم المصطنع تكمن في الصراع الدائم بين هذه الجماعات البشرية ، وهو صراع يتطور بتطور العلم وأسلحة القتال ، حتى أصبحت الحروب في وقتنا الحاضر شراً ممقوتاً لا يحتمل ، يدفع بالإحساس إلى إيجاد وسيلة للقضاء على هذا الصراع بين الحضارات للتقريب بينها ، وللقضاء على الحروب عن طريق إزالة أسبابها »[٢] .

إن المستقرئ لما يكتب في أدبيات العلوم الاجتماعية ، يتبين له أن فكرة العالمية تظهر كأداة تحليلية لوصف عمليات التغيير في منظومات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . أي أن العالمية لم تعد مجرد فكرة فقط ، وإنما أصبحت عملية مستمرة لإحداث تغييرات ذات مؤشرات كمية وكيفية .

وربما هذا الذي دفع الدكتور الأبياري إلى القول : « وهذا التصور للعالمية ليس حديث العهد ، فهو متأصل في التاريخ ، ومن يتتبعه يستطيع أن يدرك أن رجال العلم والمعرفة يلتقطون الظواهر ويقتلونها بحثاً وتحليلاً ، ثم يقدمون لنا نتيجة عملهم على هيئة آراء ، وكثيراً ما تتحول هذه الآراء إلى

فلسفة معينة يعتنقها زعيم سياسي فيعمل على تحقيقها بوسائل سلمية . وهذا لا يعني أن كلاً من العسكريين والسياسيين يعمل مستقلاً عن الآخر ، بل يعني أن السلطة الحاكمة إذا آمنت بمبدأ أو فكرة لجأت إلى تحقيقها بوسائل حربية أوسلمية »[٣] .

فإذا كانت فلسفة العالمية ونموذجها التطبيقي تختلف باختلاف الرؤية التي ترتكز عليها هذه الفلسفة ، فذلك أمر بدهي : إذ أن العوامل المؤثرة في المنظومة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية تختلف باختلاف المبدأ الذي تصدر عنه ، فإن تطبيقاتها في الواقع تختلف باختلاف دراسات أثبتت - كما يقول الدكتور الأبياري - : « أن للعالمية تقسيمات متعددة ، فقد تكون عالمية مفتوحة لا تخضع لأي قيد ، وقد تكون ضيقة النطاق أو مقيدة ، ومن ثم تخضع لشروط وأوضاع معينة ، وقد تكون العالمية دينية ، وقد تكون علمية ، أو إيديلوجية ، وهكذا »[٤] .

وإنني أعتقد أن المشكلة لا تكمن في وجود رؤى مختلفة تحكمها سلطة واحدة على مستوى مجتمع ما ، ولكنها تنبع من اختلاف التصورات للإنسان والمجتمع والعالم ، ووسائل تحقيق هذه التصورات على النطاق المحلي والإقليمي وعلى النطاق العالمي !!! هل تصدر هذه الرؤى والتطبيقات عن النظام الذي أقره خالق الإنسان والكون : { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** }[الحجرات:١٣] أم هي وسائل قهر الناس على رؤية بشرية تفرضها قوة عالمية متنفذة ؟!

لقد أثبتت التجارب البشرية - في عصر الاتصالات السريعة - أن الأحداث الاقتصادية أو السياسية في منطقة معينة من العالم ، تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الأوضاع الاقتصادية والسياسية في مناطق أخرى من العالم ، كما حدث في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م وحرب تحرير الكويت سنة ١٩٩١م ، ولا شك أن ذلك يرجع إلى : انتشار ما عرف بعولمة الإنتاج والتبادل التجاري ، والمنافسة بين القوى العالمية الكبرى ، والتقدم التكنولوجي وما عرف بالحداثة وما بعد الحداثة .

الخلاصة :

إذا كانت الثقافة العالمية وظهور وعي عالمي لها تأثيراتها على الثقافات والحضارات المحلية والإقليمية ، فإن للإنسان أن يتساءل : ما هي القوى المتنفذة عالمياً ، التي ستسعى إلى السيطرة على

صياغة هذه الثقافة العالمية وإيجاد هذا الوعي العالمي ؟!

ولا شك أن أي متابع للأوضاع العالمية يحق له أن يجيب قائلاً : بعد خروج أمريكا منتصرة من حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م ، حاولت من خلال حملات منظمة قادها الرئيس السابق " جوج بوش " باسم " النظام العالمي الجديد " ، حاولت فرض النظام القيمي للرأسمالية بصورتها الغربية ، وتسويق ذلك على أنه النظام العالمي الواجب الخضوع له في كل مكان ، وقد دعم صناع القرار السياسي علماء يمثلون المؤسسة الفكرية أمثال " فوكوياما " و " صمويل هنتنبثون " في نظريتي : " نهاية التاريخ " و " صراع الحضارات " إعادة صنع النظام العالمي .

وفي مواجهة هذه الموجة العاتية على كل مفكر واعٍ حر بصير أن يبذل جهده لمنع هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية الثقافية ، والعمل على إيجاد صورة عالمية للعلاقات تكون أكثر إنسانية ومساواة تظهر من خلالها إمكانية تحقيق كرامة الإنسان بصورة حقيقية ، وتسمح لأصحاب كل هوية أن يتمسكوا بهويتهم بحرية ونزاهة .

٢- العلاقات المتعددة :

يقول الأستاذ " السيد ياسين ": « يعتبر الاتجاه القومي تجاه التعددية أحد أهم ملامح العلاقات الدولية في العقود الأخيرة ، ويعتبر مشروع المجموعة الأوروبية بكل أصدائه ونتائجه حالة ممثلة لهذا الاتجاه - ويمكن تعريف العلاقات المتعددة الأطراف بأنها تنسيق السياسات الوطنية ، في مجموعات مكونة من ثلاث دول أو أكثر ، من خلال اتفاقات معينة وبصفة مؤقتة أو عن طريق المؤسسة .

وهناك نهج فكرية مختلفة للعلاقات المتعددة الأطراف ، ولقد عدد " روبرت كوكس " أربعة نهج وهي : الواقعية ، المؤسسة ، الليبرالية ، بنيوية النظام العالمي والجدلية التاريخية »[٥] .

والمتتبع لما حدث في العقد الأخير من هذا القرن يجد أن كثيراً من المنظومات في العلاقات تحاول أن تأخذ طريقها إلى التطبيق في واقع الحياة ، وقد أرشدت الرائد في عددها رقم ١٩٨ بعنوان : « من الذي دفع فاتورة الحرب الباردة ؟ » وفي عددها رقم ٢٠١ بعنوان : « ماذا بعد التطورات في بؤر الأزمات ؟ » إلى كثير من هذه العلاقات المتعددة الأطراف .

والذي يهمنا هنا هو علاقات المسلمين مع بعضهم كأمة واحدة ، فمنذ انتهاء دولة الخلافة انتهى

آخر كيان سياسي جامع لهم ، وعمل الاستعمار القديم والجديد على سلخهم من هويتهم وتأجيج الصراعات فيما بينهم ، والغريب هو استعداد المسلمين للتفتت والاحتراب لتحقيق مصالح سواهم ، والأغرب أن هذه الصور العملية للشرذمة والصراع انتقلت مع المسلمين المهاجرين إلى أوروبا وأمريكا ، فتراهم يفقدون هويتهم بل ووجودهم ، ولكن بأسهم بينهم شديد ، ومما لا شك فيه أنهم سيفقدون هويتهم الجماعية والشخصية بمرور الوقت إن لم يستيقظوا وينتبهوا للمخاطر التي تحيط بهم ، ومما يزيد الطين بلة ظهور العداء للإسلام والكراهية للمهاجرين في أوروبا ، وامتداد الصراع العرقي في منطقة البلقان .

الخلاصة : لا بد من استيعاب فقه الأقليات والعمل على تجاوز العرقيات ، وإشاعة روح تقبل التفاعل والحوار بين الهوية والثقافة المتعددة ، وذلك بما يسمح بالتعايش الحضاري بين الثقافات والهويات المتعددة ، ولا يحقق ذلك إلا بتوفر ما يلي :

أ- ضرورة توقف القهر بكل صوره ؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية . فالقهر سبيل للإقصاء أو القضاء أو استضعاف الآخر .

ب- اتخاذ الأسباب والوسائل لكشف مصادر الصراع ، وتطوير إجراءات حلّ ومعالجة الصراع عند وجوده بما يساعد على تعايش الرؤى المتباينة.

جـ- الوصول إلى أرضية مشتركة للتعاون على البر والخير والمصالح العامة ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وذلك يستلزم الحوار بين أصحاب الرؤى المختلفة والثقافات المتباينة بصورة إيجابية .

٣- تجذر فكرة القومية وظهورها من وقت لآخر

أثبتت الدراسات التاريخية أن فكرة القومية العصبية متجذرة ، ولقد قامت دعوات عديدة في العقود الأخيرة لإحياء فكرة القومية ، وذلك بالتأكيد على إحياء الأمة أو العرق أو اللغة ، وما نراه في بؤر الصراع من مدة ليست قصيرة هو أكبر دليل على ذلك ، ويكفي أن يطلع الإنسان على عمليات التطهير العرقي في فلسطين المحتلة وفي الهند وفي البوسنة والهرسك وفي كوسوفا وفي... حتى يرى ويلات هذه الدعوات وما تخلفه من دمار وخراب على كل صعيد .

عنوان المقال : الهوية الإسلامية في الغرب/المشكلة والحل – ٢ –	بقلم : متولي موسى

ولا زال أصحاب هذه الدعوات في إبراز قوميتهم يتشبثون بأمور منها : الوجود التاريخي لعرق من الأعراق في مكان أو موطن معين ، أو من خلال سلطانهم التاريخي في منطقة محددة ، أو الزعم بأنهم ينحدرون من سلالة كان لها وجود اجتماعي في موطن ، أو القول بأنهم يتحدثون لغة معينة كانت سائدة بين قوم يعيشون أو سكنوا أرضاً ، وكل هؤلاء وأولئك يتناسون أن كل الشواهد تدل على أن الجميع يرجعون إلى أصل واحد ، وأنهم جميعاً كانوا ينتمون إلى أمة واحدة !!!

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : ما هو تأثير الفكرة العالمية على العلاقات المتعددة الأطراف وعلى القوميات المختلفة ؟ هل سيكون هناك حوار يقبل بتعدد الهويات وإقامة علاقات متعددة على أساس الحق والمساواة ، والبحث عن تنظيم العلاقات المتداخلة بين الدوائر المشتركة ؟ أم ستشكل المستقبل على أساس فرض هيمنة القوى المتنفذة وإلزام الأقلية والضعفاء بالانسلاخ عن هويتهم ومطالبهم بالذوبان في المنظومة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمهيمن والمتسلط ؟

وإجابة على هذا السؤال : أعتقد أنه من صالح البشرية أن ترجع إلى المنهج الذي ارتضاه لها خالقها القائل سبحانه : { **والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ❋ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ❋ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم** }[محمد:١-٣]. مع إدراك أن هوية الفرد تختلف عن هوية الأمة في عناصرها وأحكامها من التغير والثبات ، ومن التمايز واللبس ، كما أن كيان الأمة يتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي :

أ- أفراد من البشر يتبعون مبدأ واحداً أو أكثر .

ب- رقعة من الأرض يستقرون عليها .

جـ- علاقات تنتظم هؤلاء الأفراد في سيرورة حياتهم .

فإذا أسقطنا مفهوم الهوية على هذه الأمة تكون هوية الأمة هي : حقيقتها من حيث تميزها عن غيرها . ويظهر ذلك في الواقع من خلال العنصر الثالث ، فلا شك أن أبرز العناصر في تكوين الأمة هي العلاقات التي تنتظم الأفراد الذين يكونون هذه الأمة . وهذه العلاقات ذات دوائر متشابكة ومتداخلة ، فثمة علاقات تنتظم الأسرة ، وأخرى تنتظم الأحياء والمدن ، وثالثة تنتظم الأمة بكامل أفرادها ؛

وعلاقات تنتظم أفراد الأمة كمحكومين بالجهاز الحاكم ، فضلاً عن وجود علاقات ذات أنماط متعددة ، فالتاريخ المشترك علاقة رابطة بين الأفراد ، والنظم المختلفة ولغة الخطاب علاقات ، هذا ويمكن اعتبار طبيعة الصلة بالأرض التي هي مسرح الحياة لها تأثيراتها في العلاقات ، فالبداوة والحضارة ، والرعي والصيد والزراعية والصناعة مؤثرات في العلاقات .

هذه العلاقات التي تنتظم أفراد الأمة في دوائرها المختلفة ، وفي أنماطها المتنوعة ليست عارضة بحيث ينخرط الأفراد فيها بمثل ما ينظم الخيط حبات العقد ، إنما هي علاقات ذات امتداد له صبغة سلوكية عملية لمنظومة من القناعات التي وجدت في وجدان وأذهان الأفراد وتشكل تصوراً عن الكون والإنسان ، وقيمة الإنسان وعلاقته بالكون ومصيره ، هذه المنظومة الاعتقادية إما أن يكون مصدرها العقل البشري ، ولكنها على كل حال هي الناظم الحقيقي للأفراد في كيان الأمة ، وبقدر ما تكون هذه المنظومة شاملة ، بقدر ما يقوى معنى الأمة في قلوب وحياة أفرادها ، وبقدر ما يتسع الانفلات في العلاقات من هذه الناظم بقدر ما تتحلل الأمة وتمشي في طريق الزوال .

للبحث صلة

الهوامش :

(١) جون هامرتون وآخرون ، تاريخ العالم ، ترجمة وزارة التربية والتعليم ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٤٨ ، ص٨٣ .

(٢) د. محمد حسن الأبياري ، المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٢٣ .

(٣) و (٤) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٥) السيد ياسين ، بحث « حوار الحضارات في عالم متغير » ، منشور في « صراع الحضارات أم حوار الثقافات ؟ » ضمن أوراق ومدخلات المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات ، القاهرة (١٠-١٩٩٧/٣/١٢) ، مطبوعات التضامن ١٧٣ ، القاهرة سنة ١٩٩٧م ، ص ٤٦ .